وطني يبتلع صغاره

برنيس مريم

وطني يَبتلعُ صِغارَه

صرخاتٌ مؤجّلة، وذاكرة لا تُصفَح

بقلم :برنيس مريم

«تأخُري لا يعني أنني تناسيت»

❀ ❖ ❀

مقدمة:

كلامي ليس للتحذير أو التنبيه، او حتى لفعل شيء، كلامي للوم فقط ألوم تأخركم، تشتيتكم، صرف انتباهكم الأولين حتى تحول الأمر الى عادةٍ ننتظر استبشارها علينا كل عام كل فترة كل ستة أشهر او حتى كل يوم..

بإمكانكم المرور وتقليب صفحات الأيام ولكن لن تقدروا على تخطيها..

«برنيس مريم»

لن أَخطّ كلمةَ الاعتذارِ في هاته الصفحات،

إلا للأنفسِ البريئةِ التي ابتلعتها أرضُ وطني.

لن أعتذرَ للكلّ،

بل سأفتحُ الصفحاتَ ولن أُنقّحها من أيِّ عبارةٍ قد تُسيءُ لشخصٍ كان له يدٌ في الأمر؛

سواء في إخفاءِ حقيقة،

سواء في فعلِ الجُرم،

سواء في تغطيةٍ أو مساندة.

وأعتذرُ لنفسي،

لأنني تأخّرتُ في طرحِ هذه الكلمات.

لن أقولَ إنني تخلّيتُ أو تناسيت،

ولكن خانتني الكلماتُ في ترتيلِ الحقيقة.

عجزتُ عن تقبُّلِ أناملي لما سأخطّه بها...

لا تستلقوا وتقرؤوا، ببل انهضوا وتأملوا، واندهشوا، وابكوا، لأن الحقيقةَ لا تأتي في كلّ فرصة، بل تقعُ في أيدي من لا يخشاها فقط.

طفلٌ يستنجد...

يصرخ،

يبكي،

يُناشد...

ثم تُقطَع الأنفاس،

تُقطَع الحياة،

تُقطَع سُبلُ الوصول.

كان التمسك شيئًا لا يُراهَن عليه،

ولا يُعتَبر خيارًا،

بل سبيلًا:

إمّا للنجاة... أو النجاة.

لكن، للأسف،

التمسُّكُ أحيانًا تخفُّ حبالُه،

أو تنقطع في منتصفِ صرخة.

كان يومًا تجزِمُ شمسُه أن لا تخمدَ حرارتُها،

وكأنها تشعرُ في جوفها بما سيحدث،

وتُخبرُ الوطن أن هناك شيئًا لا يُوحي بالخير.

وكان ليله أقلَّ سوادًا من المعتاد،

وأكثرَ إنارة،

كأنّه يقول لنا:

"بإمكانكم البحث،

لا تتوقفوا،

سأنيرُ الليلةَ بقمرَين ونجومِ الأكوان،

فقط استمرّوا..."

أما عن الأصوات... فقد خمدت.

لا تسمعُ للأرضِ هسيسَها،

كأنّها هي أيضًا تُنصتُ لأيّ صرخة،

وتجعلنا منصتين لها أيضًا...

لربما نسمع دويًّا،

أو هُتافًا لطفلٍ وحيد،

في منتصفِ بيتٍ بلا أملٍ أو حياة.

كلُّ شيءٍ كان يُسند،

وكان يُضيء،

وكان يُخبرنا أنّ هناك من يرتشفُ الخوفَ بدلَ جرعةِ ماء،

ويقضمُ سكونَ الليلِ كي ينجو، بدلَ قضمةِ خبزٍ ترثي جوعَه...

بات المسكين بلا أمل.

وكيفَ يأمل،

ويثقُ في وطنٍ يبتلعُ صغارَه دون رأفة؟

وَجدنا جُثّة.

في صباحٍ غيرِ مُشرقٍ،

في يومٍ مُؤسفٍ يُقلِبُ كفّيه وينتَحب.

أجل... جُثّة. لَم يبقَ منها

سِوى ما يَظهرُ من هُوَ كان.

الأرضُ تعتذر،

وتتركُ بَصمَتَه شاهدةً على "مَن يكون"،

تاركةً اسمَه يُخلَّد،

كأنّها تقول:

"لستُ شريكةً في الجريمة."

ها قد تركت بعض أنيابه المنتحِبة،

تَكشِرُ على يأسِكم،

وخُضوعِكم،

وفشلكم في إنقاذها.

سقَط الطِّفل.

وسقطَت روحٌ أُخرى.

وسقَطَت الخطيئة...

تُوشِمُ اسمها في تُرابِ وطني.

مبصومون على جدار بلادي

لم يكن الطفلُ يرغبُ في الصمت،

ولم يكن يرغبُ أن يُنتشل فجأةً إلى هاويةٍ مغلقة،

ولم يكن يريد أن تُختَطف منه حقيبته...

أن تُنتزع منه ورقته...

أن تختطفه أيدٍ جشعة لا تملك من نفسها شيئًا،

سوى سوادٍ في صدرٍ من صخر.

في بلادي،

ليس الليل فقط من يبتلع الأطفال...

بل أزقةُ مهجورة،

وطرقاتٌ مألوفة،

وحتى المدارس أحيانًا...

شهدت أسماءً لم تعُد، وظلالًا لا تزال تُنتظر.

بسكره، 2007: الطفلة ياسمين (9 سنوات) اختُطِفَت ووجدت جثتها لاحقًا في كيس بلاستيكي قرب حيها.

وهران، 2008: الطفل إسلام (10 سنوات)، خرج ولم يعُد...

برج الكيفان، 2012: نهال سي محند (4 سنوات)، خُطِفَت من أمام بيت جدها، وعُثِر عليها لاحقًا جثةً هامدة في الغابة.

تيزي وزو، 2013: الطفلة فريدة، اختفت من الطريق المؤدي لمدرستها، ولم يُعثَر عليها أبدًا...

عنابة، 2015: الطفل حسين، أُختطف في السوق...

قسنطينة، 2018: الطفلة رُبى (6 سنوات) اختطفتها امرأة ادعت أنها من العائلة...

سطيف، 2020: الطفل محمد الأمين، تم تحريره من قبل مصالح الأمن بعد أربعة أيام من اختفائه.

البليدة، 2022: الطفلة أمل، تم استدراجها عبر مواقع التواصل واختطافها.

وبين اسمٍ واسم...

صخبُ أمٍ لا يهدأ،

وصور أطفال لا تكبر،

ودفاتر توقفت في منتصف الحرف.

في تقارير اليونيسيف،

صُنِّفَت الجزائر ضمن الدول التي شهدت تصاعدًا في اختطاف الأطفال مطلع الألفينات،

ونادت الهيئات الأممية بوضع قوانين رادعة وتشديد الحماية المدرسية،

لكنّ الأطفال ظلوا يختفون...

والمجرمون يتوارون خلف شقوق القانون.

في كل جدار من جدران بلادي...

بصمةُ طفولةٍ مخطوفة،

وصوتُ نداءٍ لا يزال يتردد:

أعيدوني إلى أمي.

هؤلاء ليسوا مجرد أسماء...

بل ضوءٌ انطفأ قبل أوانه.

كلّهم،

مبصومون على جدار بلادي.

جُرِّدتُ من أُمومتي...

ثَقبتِ الحياةُ فراغًا أبديًّا في قلبي، فراغًا لا يمتلئ.

أنا التي كانت يومًا تنتظر صغيرها ليعود...

ولكن، في وطني، الصغار إن ذهبوا، لا يعودون.

لم أفعل شيئًا...

لكن هم فعلوا، بدافع الانتقام، بدافع الغيرة، بدافع الحسد، بدافع شره المال،

بدافع رغبتهم في أن يجعلوني يائسة من الحياة.

أنا التي سأقضي دهري أَنْتَحب على ولدي الذي لن يعود،

بينما الخاطف والقاتل بقي رافعًا سلاحه، يعلن:

أنه انتقم... أنه أكمل جريمته...

وأنه خاض معركةً انتصر فيها!

أما أنا،

فبقيتُ رافعةً يدي إلى الذي يعلم

أنّ طفلي في تلك الليلة لم يكن يبكي...

بل كان يستنجد!

لكن، لم يكن هناك من يسمع،

لم يكن هناك إلا قاتلٌ،

ومتشرّدٌ،

ومغتصِب...

يمدّ السكين لا يده!

بقيتُ أرفع يدي لربّي،

وعيوني معلّقة بجدران بلادي،

تلك التي تخلّد في صداها صرخاتُ أطفالنا.

لم أصمت...

ولم أستكن...

ولم يبرد جوفي...

لكنني سأستيقظُ يومًا،

كطوفانٍ يُهلكُ كلّ شيء.

رسالة تحت وسادتي:

رسالة لم يقرأها أحد، تنعي صياحي وتبكي قلبي وتخزن يأسها في صدري، رسالة أعتذر فيها أنني لم أُبقِ حبلَ الرباط معلقًا بين يديك، لم أُبقِ صيحتي لاسترداد حقك، رسالة أعتذر فيها عن تركك وحيدًا، وأنني لم أكن هناك حتى في لحظاتك الأخيرة، أنني لم أوعدك، أنني لم أُبقِك في حضني، أنني لم أعدك سالمًا، أو حتى قطعة واحدة، أمسك بيدك بطرف، وبرجلك بطرف، وبرأسك أبكيه دمًا... ليت الحياة قدّمتني طُعمًا لها، لا أنت. أنا اليوم أبكي لأنني لم أعد أملك منك شيئًا، سوى صورة، وحدها التي بقيت مكتملة، وغير مشوهة، وحدها التي بقيت على حالها... لم تُقطع.

الخاتمة

❀ ❖ ❀

هذه الصرخات...

ليست لتشهدوا فقط، بل لتنهضوا.

قوموا، واصرخوا بوجه وطنٍ يليق به أن يحتضن الرفات كاملة، لا أشلاء تُلفّ بالصمت.

قولوا له:

لك الحق في دفن جثث أبنائك بإذن بارئها، لا بأمر قاتلٍ موهومٍ بأن الدم يردّ له هيبة، أو يعيد له مجدًا مات معه منذ زمن.

تحياتي برنيس مريم.